غزوة بدر في القرآن؛ وقفات تربوية

علي عبد الحكيم

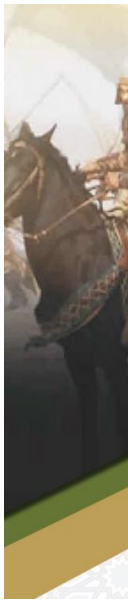

كانت غزوة بدر أحد أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام؛ ومن ثم علّق عليها القرآن في سورة كاملة، وهذه المقالة تستعرض بعض القضايا والدروس التي أثارها القرآن إبان تعليقه على أحداث هذه الغزوة.

في حياة كلّ أمة أيام تعتز بها وتتذكرها دائمًا وتعلّمها لأبنائها، فيعرفون ماضيهم ويفهمون حاضرهم ويصنعون مستقبلهم في ضوء الدروس المستفادة منها، وقد قال تعالى: {وذكّرهم بأيام الله}[1]. ومن أعظم أيام الله ونعمه على أهل الإسلام يوم بدر؛ إذ إنه كان يومًا فاصلًا، ليس فقط في تاريخ الإسلام بل في تاريخ العالم كله، فقد فرّق الله فيه بين الحق والباطل، وأعزّ الله فيه الإسلام وأهله، وأذلّ فيه الشرك وأهله، وكان سببًا رئيسًا في ميلاد حقيقي لدولة الإسلام؛ فأصبح المسلمون من يومها قوةً كبيرةً مرهوبةً من جانب أعدائها. كما وضَحت بسبب بدر حقيقةٌ كبيرةٌ وهي أن الإسلام دين له دولة تحميه وتدافع عنه، ونظرًا لتلك الأهمية الكبيرة ليوم بدرٍ فقد علّق عليها القرآن تعليقًا مطوّلًا، وأفرد لها سورة الأنفال كاملةً، والتي نزلت للتعقيب على هذه الغزوة وأحداثها. وهذا ما يجعل من دراسة هذا التعليق القرآني وتتبع ما به من رسائل وإشارات أمرًا في غاية الأهمية.

وفى هذه المقالة سوف نسلط الضوء على بعض القضايا التربوية التي اهتم القرآن بإبرازها إبّان تناوله لهذه الغزوة، ونستعرض أبرز دلالاتها وأهم الدروس والعبر المستفادة منها، وذلك بعد أن نستعرض باختصارٍ أحداث الغزوة كما رواها أهل السِّيَر.

أحداث غزوة بدر:

- كان سببها إجمالًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلًا من الشام في عيرٍ لقريش عظيمة فيها أموال لهم وتجارة من تجاراتهم، فندب المسلمين إليهم ليعوضهم عمّا فاتهم من أموالهم في مكة.
- علم أبو سفيان بخروج النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه إليه، فبعث رجلًا إلى مكة يستنفر الناس إلى أموالهم.
- فتجهز أهل مكة سراعًا، وكانوا بين خارجٍ أو باعثٍ مكانه رجلًا.
- واستشار النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه، ثم خرج بجيشه يوم الإثنين لثمان ليالٍ خلون من شهر رمضان في سبعين بعيرًا يعتقبونها، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير -رضى الله عنه-.
- نزل -صلى الله عليه وسلم- قريبًا من بدرٍ، وكان أبو سفيان بن حرب قد استطاع أن يفلت بالقافلةِ، فأرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا.
- مضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، وأنزل الله المطر فأصاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه منها ما لبّد لهم الأرض، ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشًا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدرٍ نزل به، وذلك بمشورة الحُباب بن المنذر.

- بَنى الصحابةُ للنبي -صلى الله عليه وسلم- عريشًا يكون فيه، وذلك عن مشورة سعد بن معاذ. ثم أقبلت قريش فلما رآها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلتْ بخيلائها وفخرها، تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحِنْهُم الغداة».
- دار كلامٌ كثيرٌ بين القرشيين، وحصل بينهم خلافٌ كبيرٌ، وكان أكثر رجالاتهم يودون الرجوع، إلا أن أبا جهل استطاع أن يسعّر الحرب.
- فبدأت المعركة بالمبارزة، ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وحمي وطيس المعركة في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان.
- شاركت الملائكة في المعركة إلى جانب المسلمين، وكان شعار المسلمين يوم بدر: أحدٌ أحدٌ، ثم دارت الدائرة على للمشركين فهزموا شرّ هزيمة، وقتلَ اللهُ تعالى جماعةً من صناديد قريش على رأسهم أبو جهل، وأُسر من أُسر من أشرافهم، فلما انقضى أمر بدر أنزل الله -عز وجل- فيه من القرآن سورة الأنفال بأسرها[2].

القرآن وغزوة بدر:

كان في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- العديد من المغازي والسرايا، ولا شك أن ما تناوله القرآن منها وعلّق عليه له أهمية خاصة ومكانة مميزة تستدعي من المسلمين إطالة النظر فيه لاستخراج دروسه وفوائده، ومن ذلك غزوة بدر، والتي لم يعلّق عليها القرآن تعليقًا عابرًا أو مجمَلا، بل أنزل الله تعالى في شأنها سورة كاملة هي سورة الأنفال، فعن سعيد بن جبير، قال: قلتُ لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: «نزلت في بدر»[3].

وقد تناولت تلك السورة العديد من المشاهد المتعلقة بهذه الغزوة وما اتصل بها من أمورٍ كموضوع الغنائم والأسرى وعلقت عليها، ولفتت أنظار المؤمنين إلى العديد والعديد من القضايا والمسائل التي لها أثر عظيم في حسن تربيتهم وإعدادهم إبان تناولها للأحداث ومعالجتها لتفاصيلها. وغير خافٍ أن استعراض القضايا والأمور التي عني القرآن بإبرازها وتسليط الضوء عليها خلال معالجته لتفاصيل وأحداث غزوة بدر يحتاج إلى حديث مطوّل؛ ومن ثم فإننا سوف نجمل كلامنا على قضيتين اهتم القرآن بتسليط الضوء عليهما اهتمامًا كبيرًا، وشُغل بإبرازها شغلًا بيّنًا وظاهرًا أثناء تناوله لهذه الغزوة وما كان فيها من أحداث؛ لما لهما من دور كبير في تربية المؤمنين وإعدادهم، وفيما يلي بيانهما:

أوّلًا: التأكيد على ضرورة الوحدة وأهمية إصلاح ذات البين:

إنّ من أهم أسباب القوة والمنعة لأي مجتمع أو كيان هو الوحدة بين أفراده والترابط بين جماعاته؛ ذلك أن التفرق والاختلاف والتنازع يوهن القوة ويضعفها ويفضي إلى انهيار المجتمع وسقوطه، ومن ثم نلحظ في القرآن والسنة تأكيدًا كبيرًا على أهمية الوحدة والترابط بين المسلمين؛ ففي القرآن العديد من الآيات التي تؤكد على أهمية الاتحاد، ومن ذلك قول تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92]، {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} [المؤمنون: 52]، {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: 10]، وكذا في السنة العديد من الأحاديث التي تحضّ على الوحدة وتؤكد على أن المؤمنين كالجسد الواحد[4].

والناظر في غزوة بدر وأحداثها يجد أن الصحابة الكرام بعد أن مَنّ الله عليهم بالنصر على قريش وقع بينهم تنازع واختلاف حول موضوع الغنائم/الأنفال وآلية توزيعها، وهو ما استهلّ القرآن حديثه به في بدء تعليقه على الغزوة في سورة الأنفال، حيث قال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ...} [الأنفال: 1]. فعلى الرغم من أن التنازع حصل بين الصحابة -رضى الله عنهم- في توزيع الغنائم بعد انتهاء غزوة بدر وليس في أولها، إلا أن القرءان بدأ به حديثه عن يوم بدر؛ مما يؤكد على أهمية الوحدة بين المسلمين وعظيم أمرها وخطر الفرقة والتنازع.

والناظر في تعليق القرآن على مشهد اختلاف الصحابة بعد الغزوة يجد أنه عمل سريعًا على رأب الصدع والقضاء على أسباب الخلاف والتنازع بينَهم، وقد كان ذلك من خلال:

- حسْم سبب النزاع الذي وقع بين الصحابة -رضى الله عنهم-، وهو الخلاف في أمر الغنائم؛ حيث وضّح القرءان حكم الغنائم مبينًا أن أمرها ليس لأحد منهم وإنما هو الله ورسوله دون غيرهما، وبذلك قطع كلّ سبيل يؤدى إلى الفرقة الناجمة عن الطمع في الغنائم التي حصّلها المسلمون يوم بدرٍ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} [الأنفال: 1].
- الدعوة الصريحة إلى الوحدة وإصلاح ذات البيذ؛ فإن فساد ذات البين هي الطامّة الكبرى التي تؤدي إلى خراب المجتمعات {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال: 1].

- الحث على الطاعة الدائمة لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه لا فلاح بغيرها، وهي دليل الإيمان {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 1].
- التذكير ببعض صفاتِ المؤمنين:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: 2 - 4]، ومن أهم هذه الصفات التي استعرضها القرآن ونبّه عليها الخشوع وخوف القلب إذا ذُكّر بحكم الله، وكذا التوكل على الله تعالى، والذي يعلق عليه ابن كثير بقوله: «أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقّب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان»[5]، وكذا من الصفات المهمّة التي أشار إليها القرآن إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله تعالى.

وبيّنٌ أن التذكير بالمقام العالي للمؤمن والصفات التي عليه أن يتخلق بها أمرٌ له أهميته وقوّته في رفع النفوس والارتقاء بها وإعانتها بذلك على تجاوز أزمتها والتحرر من الخلل العارض الذي طرأ عليها والعودة بها سريعًا إلى ما يجب أن تكون عليه.

ولا شك أنّ الناظر في الصفات التي استعرضها القرآن هاهنا لا يجدها تمثّل سائر أجزاء الإيمان التي دلّت عليها نصوص كثيرة، ولكنها صفات لها أهميتها في مقام الاختلاف، وهو ما نبّه عليه صاحب الظلال، حيث قال بعد أن استعرض الصفات الواردة في الآيات: «تلك هي الصفات التي حدد الله بها -في هذا المقام- الإيمان... وهي لا تمثل تفصيلات الإيمان -كما وردت في النصوص الأخرى-؛ إنما هي تواجه حالة واقعة.. حالة الخلاف على الأنفال وفساد ذات البين من جرائها.. فتذكر من صفات المؤمنين ما يواجه هذه الحالة.. وهي في الوقت ذاته تعيّن صفات من فقدها جملةً لم يجد حقيقة الإيمان فعلًا، بغضّ النظر عما إذا كانت تستقصي شروط الإيمان أو لا تستقصيها. فمنهج التربية الرباني بالقرآن هو الذي يتحكم فيما يذكر من هذه الشروط والتوجيهات في مواجهة الحالات الواقعية المختلفة؛ ذلك أنه منهج واقعي عملي حركي، لا منهج نظري معرفي، مهمته بناء (نظرية) وعرضها لذاتها!»[6].

إنّ اهتمام القرآن بموضوع الوحدة ونبذ أسباب الفرقة في بداية السورة ومستهلّ تعليقه على أحداث الغزوة أمرٌ له آكد الدلالة على خطورة هذا الأمر وأهمية أن يلتفت المجتمع المؤمن إليه ويوليه قدرًا كبيرًا من العناية والاهتمام، فلا يسمح بظهور أسباب التفرّق والتنازع بين أفراده، ويجتهد سريعًا في رأب الصدع ووأد الفتن التي قد ترد في هذا الشأن؛ حتى لا تتقطع أواصر المودة بين المؤمنين ويفسد ما بينهم من اتصال ولحمة ومن ثم يكونون عرضة للهزيمة ولشتى الأمراض والعلل، وتاريخ المسلمين بوجه عام ناطق بخطر الوحدة؛ حيث يَبِينُ للناظر فيه سريعًا بأن جلّ المصائب والنكبات التي نالت من المسلمين قديمًا

وحديثًا كانت بسبب التنازع والافتراق.

ثانيًا: كسر الغرور الذي قد يفرزه النصر:

يقع الإنسان فريسة في كثير من الأحيان للغرور بعد إحراز التقدم والنجاح، وتزداد سطوة الغرور عليه والإعجاب بذاته، خاصة إذا كان هذا الفوز كبيرًا أو ذاك النجاح ضخمًا غير متوقع، ففي هذه الحالة تتعاظم النفس وتكبر وتمتلأ بالغرور حيث تشعر بفرادتها وتميّزها...إلخ، ولا شك أنّ سيطرة هذه المشاعر على النفس قد تُودِي بها فتقطعها عن ربها وتنسيها فضله عليها؛ فبدًلا من أن تتجه للشكر والتحميد والاعتراف بفضل الله واللهج بالثناء عليه وذكر توفيقه، فإنها تتجه إلى إبراز فضائلها ومكامن قوّتها، ولا تلحظ إلا ذاتيتها وما كان منها من بذل وجهد في تحصيل الفلاح الذي حازته، وهذه آفة قد تعرض النفس للفساد، وقد تقطع عنها استمرار فضل الله عليها ودوام توفيقه لها. كما أنّ هذه الآفة قد تعرّض صاحبها للدمار، وتقطعه عن الاستمرار في تحصيل أسباب القوة؛ حيث يركبه الزهو والغرور فلا يتجه لدراسة قصوره وتحسّس مواطن ضعفه ليقويها ويعمل على تعزيزها وإصلاحها. ومن هاهنا فإن الفلاح كلّ الفلاح في عدم الاسترسال وراء مشاعر الزهو التي يخلفها الانتصار وإحراز النجاح وضرورة مقاومته بشتى السبل؛ حتى يسلم للنفس السير في تحصيل أسباب قوتها وتكون محًلا لتنزّل البركات والفضل من الله عليها، وهو الأمر الذي سعى القرآن إلى لفت الأنظار إليه والتأكيد عليه في غير ما موضع من تعليقه على أحداث الغزوة، ومن ذلك:

- التذكير بأن الله هو المدبّر على الحقيقة: وهو ما أكدت عليه آيات السورة كثيرًا؛ فالله تعالى هو الذي قوّاهم بالملائكة {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: 9]، وهو الذي قتل عدوهم {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: 17]، وهو الذي أضعف الكافرين {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [الأنفال: 18]. ولا شك أن التذكير بيد القدرة التي وقفت خلف الأحداث أمرٌ له دوره في ردّ النفس إلى موضعها، وكسر لغرورها، ومنع لها من الاسترسال وراء وهْم الشعور بأنها سبب الانتصار والعنصر الفاصل في تحقيقه وحيازته.
- التذكير بحالة الضعف السابقة للمؤمنين: وهو ما بينته السورة وأكدت عليه؛ حيث ذكّرت الصحابة بماضيهم القريب حينما كانوا مستضعفين يخافون من الناس، فكان الله تعالى هو من آواهم ونصرهم ورزقهم {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: 26]. وكذا جرى التذكير بحدث الهجرة وما كان من تآمر المشركين، وكيف نجى الله دعوته منهم {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: 30].

إنّ تذكّر فضل الله تعالى، وكيف أنه المدبّر على الحقيقة، وتذكّر حالات الضعف التي كان عليها الإنسان، ومدّ البصر إلى ماضيه قبل أن يحرز النصر ويحقق

النجاح؛ وسيلة عظيمة لكبح غرور النفس وإلزامها موضعها وتبصيرها بقدرها ومكانتها الحقيقية، فما أحرانا بهذا الأمر لا سيما عند تحصيل النجاح! فنكثر من ذكر فضل الله علينا، وكيف دبّر لنا الأمور، فسارت على النحو الذي نريد رغم كثرة العراقيل والعقبات والاحتمالات بأن تسير في اتجاهات أخرى، وكذا نذكّر أنفسنا بماضينا والحال التي كنّا عليها بكلّ ما فيها من ضعف وفقر؛ حتى نمنع العجب والغرور من التسرّب لذواتنا فيكون من أكبر عوامل إضعافنا وقطع مدد السماء وبركاتها عنا.

إنّ ضرورة الوحدة وإصلاح ذات البين وأن تكون النفوس معلقة بربها ومتجهة لخالقها وعارفة بفضله أمور لها أهميتها وضرورتها في سلامة المجتمع المؤمن وصحته من الآفات التي قد تُودي به؛ ومن ثَم اهتمت سورة الأنفال من بين ما اهتمت بالتأكيد عليهما أثناء تناولها لأحداث غزوة بدر وتعليقها على مشاهدها، فبغير الاتحاد تنهزم المجتمعات وتضعف وتصبح عارية من أسباب القوة التي تواجه بها شتى الأخطار من حولها، وبغير العرفان الدائم بفضل الله تعالى بعد النجاح يركبها الغرور فلا تستأنف السَّيْر الراشد في تقوية صفّها وتحسس مواضع قصورها وتبيّن مكامن الزلل، كما لا تكون محَّلا قابًلا لاستدرار فضل الله عليها وتنزّل بركاته في ساحاتها. فما أحرانا بالنظر في القرآن وتتبّع تعليقه على بقية هذه الغزوة وغيرها من الغزوات التي اعتنى القرآن بتسجيل أحداثها والتعقيب عليها، واستخراج الفوائد والدروس التي تكمن خلف هذا التعليق، وتبيّن التوجيهات الكريمة التي تريد الآيات أن تلفتنا إليها من وراء ذكرها للأحداث ومعالجتها لتفاصيلها.

[1] إبراهيم/ 5.

[2] للمزيد حول الغزوة، انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، 1375هـ - 1955م، م1، ص606.

[3]البخاري.

[4] يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ شَيْءٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» مسند أحمد.

[5]تفسير ابن كثير (4/ 12).

[6]في ظلال القرآن (3/ 1477- 1478).